اغتيال الملك فيصل أم بداية اغتيال النظام؟

رغم ان اغتيال الملك فيصل كان مفاجأة للكثير من الساسة الا انه لم يكن مفاجأة لمن كان يتتبع اوضاع هذا البلد المغلق ، واذا كانت هناك من مفاجأة لهؤلاء المتتبعين فانها لا تتعدى الشكل الذي اخذه هذا الحدث (اغتيال الملك من قبل ابن اخيه) . لقد ترعرع هذا الحدث في مناخ يعج بالخلافات والصراعات بين افراد الاسرة المالكة ، او في ظل اوضاع مجاورة مستقطبة او مؤثرة ، وفي ظل ازمة بين الحاكم والمحكوم ، تجلت بتصاعد القمع والارهاب لجماهير الشعب وحركته الوطنية ، وحرمان الشعب من ابسط حقوقه ، وفي ظل تدخل اجنبي سافر اصبح يمسك بتلابيب النظام ويتواجد في كل مرافق الحياة في البلاد، مضافا الى كل ذلك ان هذه الثروة الهائلة لا بد ان تحدث فعلها في البلاد مهما حاولت السلطة ان تحد من اثارها .

ان الذي حدث في الجزيرة العربية (السعودية) هو عبارة عن اعلان لازمة كانت مضمرة ، وهو في الوقت نفسه مقدمة لسلسلة من الصراعات والتغييرات ، ولعله من المفيد ان نقف وقفة لاستدراك مجمل الاوضاع في الجزيرة العربية:

اولا : عصبية السلطة :

ان عصبية السلطة السعودية في منشئها عصبية مركبة من ثلاثة عناصر ، العنصر الديني والقبلي والاقليمي (النجدي) ، الا ان هذه العناصر قد طرأ عليها تحول هام ، ويمكن تلخيص ما طرأ على العناصر الثلاثة من تحول على النحو التالي :

١ ــ الجانب الديني :

فقد تقلصت والى حد كبير فرص استغلال الدين ، ويرجع هذا الى الامور التالية :

ا ــ تكشف مجمل الممارسات السعودية التي جعلت من الدين مطية لاغراضها وشهواتها السلطوية كما ان احتكار السلطة السياسية من قبل الاسرة السعودية ما كان يمكن ان يستكمل لولا تقليص دور رجال الدين ، وبشكل خاص دور اسرة الشيخ (محمد بن عبد الوهاب) . ومن هنا فانه ليس بمقدور النظام ان يستغل الدين بشكل فعال دون رجال دين ، كما ان البون قد اصبح شاسعا بين القول والممارسة ، وخاصة في ظل ثروة ضخمة وهائلة ، وضعت في يد مجموعة من الجهلة والمراهقين والعاطلين ، تبعها عبث وتفنن في اساليب المجون والفجور ، ويكفي ان ناتي باحدث مثال لتبيان ذلك الدرك الذي وصلت اليه تلك الممارسات البائسة واليائسة ، تولي العهد والنائب الاول لرئيس مجلس الوزراء ووزير الداخلية حاليا خسر على موائد القمار في ليلة واحدة فقط ستة ملايين دولار ، ونشرت ذلك امهات الصحف الغربية ، في حين لم تنبس السلطة السعودية بكلمة واحدة .

فاذا كان هذا تصرف من هو في ذروة السلطة ، ومن تجاوز به العمر الرابعة والخمسين ، فكيف يمكن تصور سلوك اولئك الشبان الاغرار المليئة جيوبهم بالاموال ، وقديما قال الشاعر ابو العتاهية :

ان الشباب والفراغ والجده
مفسدة للمرء اي مفسدة

ب ــ رغم ان المذهب الرسمي هو المذهب الحنبلي وهو الذي استندت عليه الحركة الوهابية ، فان الجزيرة العربية تعرف مذاهب عدة فعلى صعيد السنة يوجد اكثر من مذهب فهناك الشوافع والموالك والاحناف، الا ان النظام السعودي رفض ان يعترف بان هناك مذهبا غير المذهب الحنبلي ، واخذ يتصرف بوحي من ذلك ، واذا كان هذا هو نهج الحكم السعودي على صعيد مذاهب السنة فكيف يمكن تصور شان نهجه في علاقته بالشيعة ؟

ان التفرقة بين الشيعة والسنة كانت نهجا ثابتا للحكم السعودي بشكل اخذ طابعا يصعب على العقل الانساني ان يتصوره ، ذلك الطابع الذي تجلى في جملة مظالم استهدفت الشيعة ، فبكفي ان نعرف ان شهادة الشيعي لا تقبل في المحاكم الرسمية حتى يومنا هذا ، وان اسماءا كان يتسمى بها الشيعة قد منعوا من التسمي بها كعبد الرسول وعبد النبي وعبد الحسين .. الخ . مما خلق مشكلة امام من سبق لهم وان تسموا بهذه الاسماء فاصبحوا الان يعرفون باسمين ، اسم مستحدث للمعاملات الرسمية واسم اصيل للتداول العام .

ج ــ ان مجمل التطورات والتحولات التي حدثت في هذا العصر اضعفت امكانية استغلال الدين كما كان الامر في السابق .

ولهذه الاسباب مجتمعة نخلص الى ان فرص استغلال الدين التي كانت متاحة للنظام السعودي منذ قرن واكثر قد تقلصت تقلصا كبيرا ، بل يمكن القول بان مجمل الممارسات السعودية قد اساءت كثيرا الى القيم الروحية وادت الى اثار سلبية تتجلى لنا اليوم في موجة استخفاف بالدين بين اوساط الشباب ، حيث التبس الامر على البعض فخلط بين الدين الحنيف والدين السعودي .

٢ ــ الجانب القبلي :

لقد طرا تحول هام على الوضع القبلي في البلاد ويمكن ايجازه على النحو التالي :

ا ــ لقد كان البدو في بداية القرن العشرين عند بروز الدولة السعودية الثالثة يشكلون ٨٠٪ من سكان البلاد ، اما اليوم فانهم لا يتجاوزون ٢٠٪ في اقصى التقديرات .

ب ــ ان بعض الحكام لا يتذكرون بعض الاشياء الا عند حاجتهم لها ، فبعد ان استقرت السلطة السعودية لم تعد البادية تحظى باهتمامهم كما كانت بالامس ، فاذا اضفنا الى ذلك ان وضع البادية في ترد مستمر بسبب شحة الامطار في السنين الاخيرة . وارتفاع تكاليف المعيشة ، واهمال السلطة لهم ادركنا حقيقة وضعهم .

ج ــ ان السياسة السعودية درجت على التفرقة بين القبائل لخلق نوع من التوازن والتنافس فيما بينها ، لاشغالها عن التدخل في شؤون الحكم بل ولتظهر الحكم السعودي بمظهر الحكم في خضم تلك الصراعات .

د ــ ان البدو كانوا عنصرا هاما في قيام السلطة السعودية ، ونظرا لما حدث من تحول هام على مستوى التسليح وفنون القتال فقد اصبحوا غير قادرين على ان يلعبوا دورا مشابها لذلك الدور الذي لعبوه في القرن الثامن عشر او في بداية هذا القرن .

٣ ــ الجانب الاقليمي :

لقد اعتمد النظام (العصبية النجدية) ، بحكم كون الاسرة المالكة من نجد ، وبحكم نشوء السلطة السعودية في نجد ، وبحكم مرور فترة ليست بقصيرة والحكم السعودي يراوح في نجد فقط ، بحيث لم يستطع ان يضم اليه اقليم الاحساء في الدولة السعودية الاولى الا بعد اكثر من ربع قرن ، وكذلك كان الامر مع الحجاز وغيرهما ، كما ان الدولة السعودية الثالثة في بداية القرن العشرين بدات في الرياض ولم تستطع ان تضم الاحساء الا بعد مضي ثلاث عشرة سنة ، اما الحجاز وحائل وعسير فلم يتم الاستيلاء عليها الا بعد قرابة ربع قرن .

ومن هنا فان السلطة السعودية قد اخذت طابعا وتكونا خاصا قبل ان تلحق الاقاليم الاخرى بها مما جعل تكيفها لتكوين عصبية اشمل تستوعب ان ينحو نحوا وحدويا فقد كان يلجا الى التلصيق ، اي الاستعاضة عن الجوهر بالشكل ، ويمكن القول وبحق أن الجزيرة العربية (السعودية) غير موحدة الا رمزيا في شخص حاكمها ، وفي اطلاق اسم (المملكة العربية السعودية) عليها وذلك لاسباب عدة ياتي في مقدمتها الاضطهاد الذي رافق الاستيلاء السعودي على بقية الإقاليم والذي اخرجه الحكم السعودي

زورا على انه اضطهاد نجدي(١) ، ولان البلاد مترامية الاطراف وذات مواصلات ناشئة وغير كافية ، وبسبب الاختلافات الدينية والبيئية وما درج عليه النظام السعودي من اذكاء وتاجيج لها ، ولعجز الحكم السعودي عن تحقيق وحدة حقيقية . ان الجزيرة العربية (السعودية) يمكن تقسيمها بشكل عام الى اربعة اقاليم ، نجد والحجاز والاحساء وعسير ، وان كلا من هذه الاقاليم قد عرف ولفترة غير قليلة حكما محليا ، وكان لكل اقليم من هذه الاقاليم موارد خاصة به . ولا شك ان النفط اليوم يشكل الثروة الضخمة الوحيدة في البلاد ويقتصر وجوده حتى الان على المنطقة الشرقية (اقليم الاحساء) .

ان عصبية اليوم لم تعد كما كانت بالامس وذلك بسبب ما طرا على تلك المفاهيم القديمة من تحولات وما فرضته احكام الواقع الموضوعي من تغيرات .

لقد كانت نجد ضحية كسائر الضحايا السعودية ، ولقد ادركت هذه الحقيقة من قبل ابنائها ، فكانوا مع مقدمة المناضلين الذين زخرت بهم السجون والمعتقلات السعودية في جميع حملات الارهاب والاضطهاد ،وهكذا كانت الاضاليل السعودية تتكشف واحدة تلو الاخرى ، بحيث لم تعد تنطلي الا على قلة جاهلة او منتفعة من الناس

ثانيا : العنصر الاجنبي :

لقد اعتمدت السلطة السعودية في طورها الثالث (منذ بداية القرن العشرين) على المستعمرين اعتمادا كبيرا وكان للانجليز اليد الطولى في توسيع نفوذ ابن سعود وترسيخ سلطته . وفي بداية تسلل النفوذ الامريكي الى المنطقة حرص على ان يظهر بمظهر الحريص على التعايش مع المستعمرين الانجليز ، وما ان تمكن من ذلك حتى احتل مكانتهم فاستولى على النفط السعودي بشكل كامل ، وتدرج الامريكان في نفوذهم حتى اصبحوا يتواجدون في كل مرافق الحياة باساليب واشكال حديثة .

ويمكن القول وبحق ان الامريكيين اصبحوا الدعامة الاولى والاساسية للحكام السعوديين ، واذا كان هذا الامر يبدو لمن ينظرون للامور نظرة سطحية انه عنصر قوة فانه في الحقيقة مثار سخط ونقمة لدى جماهير الشعب . ومن هنا يفترض ان لا يؤخذ هذا الامر من وجه واحد ، بل وحتى اذا اخذناه من هذا الوجه الذي اراده النظام السعودي ، فان التجارب قد علمتنا ان الاجانب لم يستطيعوا ان يشفعوا لعملائهم في لحظات وضعوا فيها امام الامر الواقع ، فهل شفع حلف بغداد لنوري السعيد مثلا ؟

ثالثا ــ الوضع الشعبي :

ان هناك من ينظر للوضع في الجزيرة العربية (السعودية) نظرة لا تختلف كثيرا عن نظرتهم لها منذ بداية القرن العشرين ، وهؤلاء ينطلقون في نظرتهم هذه من نهج الحكومة السعودية الذي لا يزال ينطلق في تعامله مع الشعب من نفس المنطلقات القديمة ، انهم ينظرون الى هذا الشعب على انه كم مهمل ، وفاتهم ان تحولات هامة قد حدثت رغم كل تلك القيود السعودية ، فهناك قدر من الوعي السياسي لم يكن له مثيل بالامس ، وهناك حركة وطنية لم تكن موجودة هي الاخرى سابقا . ويكفي ان نعلم بان السلطة السعودية قد اعتقلت المئات من المواطنين في عام ١٩٦٩ تجاوز عددهم ٧٠٠ مناضل من بينهم قرابة مئتي ضابط وضابط صف ، كانوا على ابواب تغيير السلطة ، بحيث يمكن القول انه لم يبق بينهم وبين تسلم السلطة سوى قيد شعرة ، وخاصة اذا علمنا ان جميع الانقلابات والتغييرات التي حدثت في المنطقة العربية لم تتمكن من ان تجمع هذا العدد الضخم من الضباط وضباط الصف . والحقيقة ان تحولات هامة على الصعيد الشعبي قد اتخذت مجراها الايجابي وان تجاهلتها السلطة السعودية بحكم عقليتها المتحجرة واساليبها المتبلدة الامر الذي لا يقلل من شانها بل العكس هو الصحيح تماما . واذا كان النظام السعودي قد وجه ضربة قوية للحركة الوطنية فانه لم يستطع ان يلغي الحركة الوطنية ذاتها . ولا شك ان اساليب القمع والارهاب قد تفعل فعلها في اتجاه سلبي ، ولكن هذا لا يمثل الا وجها واحدا من الحقيقة ، اما الوجه الاخر فيتمثل بان النضال في ظل ذلك المناخ يزيد المناضلين صلابة ومراسا وعنادا . وهناك ايضا تحولات هامة في التركيب الاجتماعي للمجتمع فقد نشات طبقات لم تكن معروفة وهي متقدمة على ما كانت عليه بالامس ، وهناك ايضا توجه مثلهف نحو التعليم . مضافا الى كل ذلك تاثير الاحداث العربية وحركة الثورة العربية ، ذلك التاثير الذي لا نبالغ اذا قلنا بانه اكبر دليل على ذلك .

خامسا : على صعيد الجيران :

لقد حدثت تحولات هامة في المنطقة العربية بشكل عام وعلى صعيد جميع الاقطار المجاورة للجزيرة العربية (السعودية) بشكل خاص . فالنظام الامامي في اليمن قد سقط . والاستعمار البريطاني في عدن قد ولى ، والنظام الملكي في العراق هو الاخر قد اندثر ، وثورة ١٧ تموز قد اخرجت العراق من قطر منهوك مشغول معزول الى قطر فاعل ومؤثر ومشع ، وكيانات الخليج استدعت اوضاعها القيام بترميمات عدة ، وبقي النظام السعودي متحجرا ، فريدا في نوعه ، غريبا على جيرانه ، فهو لا بد ان يتاثر بما حدث حوله شاء حكامه ام لم يشاؤوا .

الصراع على السلطة

لقد مرت السلطة السعودية باطوار ثلاثة ، واذا صح ان مانع المريدي الجد الاعلى للاسرة السعودية هو الذي بنى الدرعية في عام ٨٥٠ هجرية الموافق ١٤٤٦ م فان هذا يعني ان الزعامة السعودية قد ظلت تراوح في تلك القرية المتناهية الصغر ثلاثمائة سنة . ثم بدا التحول الهام على اثر هجرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى الدرعية عام ١١٥٧ هجرية وهنا بدا الطور الاول للدولة السعودية وشهدت اوسع توسع لها بين عامي (١٧٤٥ ــ ١٨١٨ م)(٢) .

وفي نهاية الطور الاول تم تدمير الدولة السعودية عن طريق الاتراك بواسطة محمد علي وابنائه ، ثم قامت الدولة السعودية الثانية على اثر انسحاب جيوش ابراهيم باشا ، فانفتنها الخلافات بين افراد الاسرة للاغتيال ، الا ان الوالد قد نجا بعد ان اثخنته الجراح ففر هاربا ، واستولى موسى على حكم الدرعية ، وعندما تولى مرخان الحكم ، لم يرض ابناء ربيعة على ولايته فقتلوه واستولوا على امارة الدرعية التي كانت عبارة عن قرية صغيرة ، وعندما تولى ناصر بن محمد امارة الدرعية